مسالك النصوص الشرعية في بناء توحيد الألوهية وإبطال الشرك فيه

سلطان بن عبد الرحمن العميري [1]

الملخّص

تقوم فكرة البحث على دراسة المسالك التي اعتمدت عليها النصوص الشرعية في بيان حُسْن التوحيد وقُبْح الشرك، وبيان ثَراء تلك المسالك وتَنَوّعِها وتَعَدُّد مجالاتها، فبعضها مسالك عقلية، وبعضها مسالك نفسية، وبعضها مسالك حياتية.وقد برزت مشكلة البحث في أنه يعالج المسالك التي اعتمدت عليها النصوص الشرعية في إثبات التوحيد وإبطال الشرك، ويهدف البحث إلى الكشف عن ثراء النصوص الشرعية في أدلتها وبراهينها، وتعزيز اليقين بأصول الدين وكُلِّيَّاته الكبرى، وتقوية أساليب الدعوة إلى الله تعالى وإثرائها، وفتح الآفاق أمام المشتغلين بعلم العقيدة لِيُعَمِّقُوا مسالكهم وبراهينهم البنائية، وقد اعتمدت على منهج التحليل والاستنباط، وتوصلت إلى عدد من النتائج، من أهمها: أن النصوص الشرعية لم تعتمد على مسلك واحد في بيان حُسْن التوحيد وقُبْح الشرك، وإنما اعتمدتْ على مسالك متعددة، وأن النصوص الشرعية لم تقتصر على بيان حُسْن التوحيد فقط، وإنما جمعت مع ذلك بيان قُبْح الشرك، فجمعت بين البناء والهدم.

الكلمات المفتاحية: المسالك، التوحيد، الشرك، الشرعية.

[1] أستاذ مشارك بقسم العقيدة كلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى مكة المكرمة. < saomairi@uqu.edu.sa >

The paths of the Islamic scriptures in establishing the monotheism of divinity (the oneness of God Almighty) and the abolition of polytheism in it

[2]Soltan Ibn Abd El Rahman El Emiry

Abstract

The idea of the research is based on studying the paths on which the Islamic scriptures relied on in explaining the goodness of monotheism (the oneness of God Almighty) and the ugliness of polytheism (sherk), and the richness, diversity and multiplicity of these paths, as some of them are mental paths, some are psychological paths, and some are life paths. The main issue of the research has appeared in that it deals with the paths on which the shariaa texts based in establishing monotheism (al tawhid) and nullifying polytheism (shirk). The research aims to reveal the richness of the Islamic scriptures in their evidence and proofs, to enhance certainty in the fundamentals of religion and its major universals, to strengthen and enrich the methods of calling to God Almighty, and to open up horizons for those engaged in the science of faith (aleaqida) to deepen their paths and constructivist proofs. I applied the methodology of analysis and conclusion, and from the most important results which were reached: that the shariʿah texts did not depend on a single path in explaining the goodness of monotheism (Al-Tawhid) and the ugliness of polytheism (shirk). Rather, it relied on several paths. And that the shariʿah texts were not confined to a statement of the goodness of monotheism (Al-Tawhid) only, but It compiled with that a statement of the ugliness of polytheism, so they combined construction and demolition.

Keywords: paths, monotheism (Al-Tawhid), polytheism (shirk), legitimacy, shariʿah.

[2]Profr,dr of College of Da`wah and Fundamentals of Religion, Umm Al-Qura University, Makkah Al-Mukarramah saomairi@uqu.edu.sa

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.. أما بعد:

فإن قضية التوحيد والشرك تُعَدّ من أخطر القضايا الشرعية التي دارت فيها رَحَى النصوص الشرعية وانْبَنَتْ عليها أحكامها وتشريعاتها، فكان من الواجب على المشتغلين بالعلم الشرعي، وبعلم العقيدة على الخصوص أن يُولُوا هذه القضية مزيدا من الاهتمام، ويُعملوا فيها المناهج العلمية الصحيحة، ليقرروا الحق بأكبر قدر من القوة والتماسك، ويدفعوا الباطل في هذا الباب الخَطِر، ويزيلوا اللَّبْس ويكشفوا الشُّبَه المؤثرة فيه.

فلأجل هذا جاءت فكرة هذا البحث، التي تقوم على بحث المسالك التي اعتمدت عليها النصوص الشرعية في بيان حُسْن التوحيد وقُبْح الشرك بالله، وإثبات أن المسالك التي اعتمدت عليها النصوص في ذلك متنوعة، بعضها مسالك عقلية، وبعضها مسالك نفسية، وبعضها مسالك حياتية، كما سيأتي إثباته في أثناء البحث.

مشكلة البحث:

يقصد البحث إلى الجواب عن عدد من المشكلات البحثية المتعلقة بقضية المناطات المُوجِبة للكفر والخروج من الملة في الأفعال والأقوال، منها: هل حُسْن التوحيد مبني على الأدلة الخبرية المحضة أو أن له أدلة عقلية قطعية؟ ومنها: هل قُبْح الشرك بالله مبني على الأدلة الخبرية المحضة أو ثَمَّ أدلة عقلية قاطعة تدل عليه؟ ومنها: هل النصوص الشرعية تتضمن أدلة عقلية على إثبات أصولها الكبرى أو لا؟ ومنها: هل النصوص الشرعية اقتصرت على المسالك العقلية في إثبات حُسْن التوحيد وقُبْح الشرك بالله أم أنها أضافت مسالك أخرى؟

أهداف البحث:

للبحث في المسالك الشرعية الدالة على حُسْن التوحيد وقُبْح الشرك بالله تعالى أهداف متعددة، منها:

الهدف الأول: الكشف عن ثراء النصوص الشرعية في أدلتها وبراهينها.

الهدف الثاني: تعزيز اليقين بأصول الدين وكُلِّيَّاته الكبرى.

الهدف الثالث: تقوية أساليب الدعوة إلى الله تعالى وإثرائها.

الهدف الرابع: فتح الآفاق أمام المشتغلين بعلم العقيدة لِيُعَمِّقُوا مسالكهم وبراهينهم البنائية.

المنهج المتبع في البحث:

سلكتُ في معالجة مسائل البحث وفقراته عددا من المناهج، وهي: منهج الاستقراء والتحليل والتفسير.

الدراسات السابقة:

لم أقف –بعد البحث والتنقيب– على دراسة سابقة أفردتْ موضوع المسالك التي اعتمدت عليها النصوص في تقرير حُسْن التوحيد وقُبْح الشرك بالله تعالى.

ومع ذلك فقد وجدتُّ دراسات تضمنتْ فصولا ومباحث فيها مادة مشتركة مع مادة البحث، ومما وقفت عليه من الدراسات:

الدراسة الأولى: دلائل توحيد الألوهية، علي محمد ثاني، وهي عبارة عن رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية، ولكنه لم يركز على الانطلاق من حقيقة الدليل كما في بحثي هذا، ولم يجمع بين ما يدل على حسن التوحيد وقبح الشرك.

الدراسة الثانية: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد أحمد ملكاوي، وهي عبارة عن رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية

والفرق بينها وبين بحثي أن الباحث اقتصر على سرد الأدلة بناء على متعلقها وليس بناء على وجه دلالتها، فذكر الدلالة الكونية ودلالة ضرب الأمثال ودلالة القصص، وأجمل الحديث عن الدلالة العقلية، وأما بحثي فقد انطلق من حقيقة الدليل ومن وجه دلالته، وجمع بين بيان حسن التوحيد وقبح الشرك.

الدراسة الثالثة: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، د. سعود بن عبد العزيز العريفي.

والفرق بينها وبين بحثنا أن الباحث لم يستوعب كل المسالك التي اعتمدت عليها النصوص الشرعية في بيان حُسْن التوحيد في الألوهية وقُبْح الشرك فيه، فقد اقتصر على مسلكين في بيان حُسْن التوحيد وتَوَسَّع في شرحهما، وعلى ثلاثة مسالك في قُبْح الشرك وتَوَسَّع في شرحها.

الدراسة الرابعة: الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة، د. عبد الكريم نوفان عبيدات.

والفرق بينها وبين بحثنا أن الباحث لم يفرد توحيد الألوهية بمبحث خاص، ولم يستوعب المسالك التي اعتمدت عليها النصوص الشرعية في بيان حُسْن التوحيد في الألوهية وقُبْح الشرك، وإنما ذكر بعضا منها، ثم تَوَسَّع في شرحها على حساب المسالك الأخرى، فهو لم يذكر في بيان حُسْن التوحيد إلا مسلكين فقط، ولم يذكر في بيان قُبْح الشرك بالله تعالى إلا مسلكين فقط.

إجراءات البحث:

– عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها في القرآن.

- تخريج الأحاديث النبوية من مصادرها المعتمدة.
- جمع المعلومات المتعلقة بالموضوع من مصادرها الأصلية.
- تقسيم مادة البحث تقسيما يُظهر الجوانب العلمية المختلفة فيه.

خطة البحث:

يقوم هيكل البحث على مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة؛ ففيها بيان فكرة البحث وأسئلته وأهدافه ومناهج البحث المعتمدة فيه وإجراءاته وخطته.

وأما التمهيد؛ ففيه تعريف بالمصطلحات الأساسية التي يتضمنها عنوان البحث.

وأما المبحث الأول: فهو عن إقامة الأدلة الدالة على أن الله وحده هو المستحق للعبادة.

وأما المبحث الثاني: فهو عن إقامة الأدلة الدالة على أن من دون الله لا يستحق العبادة.

وأما المبحث الثالث: فهو عن بيان حُسْن التوحيد.

وأما المبحث الرابع: فهو عن بيان قُبْح الشرك، والكشف عن آثاره الضارة في حياة الإنسان.

وأما الخاتمة؛ ففيها ذكر أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد

تعريف المصطلحات الأساسية التي يتضمنها عنوان البحث

أولا: مفهوم المسالك:

المسالك: جمع مَسْلَك، ومعناه في اللغة يرجع إلى الدخول في الطريق، يقول ابن فارس (ت:395هـ=1004م): "السين واللام والكاف: أصلٌ يدل على نُفُوذ شيء في شيء. يقال: سلكتُ الطريق، أسلُكه، وسلكتُ الشيء في الشيء: أَنْفَذْتُه"[3]، ويُطلق على الطريق نفسه، يقول الأزهري (ت:370هـ=981م): "المَسْلَك: الطريق، والسَّلْك: إدخال الشيء تسلكه فيه"[4]، ومنه قول أبي هريرة رضي الله عنه: «ما أجد له مَسْلَكًا»[5]، أي: طريقًا ومنفذًا.

وبناءً عليه فالمراد بمسالك النصوص الشرعية: الطُّرُق التي اعتمدتْ عليها النصوص الشرعية في بيان حُسْن التوحيد وقُبْح الشرك.

ثانيا: مفهوم توحيد الألوهية:

يرجع معنى التوحيد في اللغة إلى الانفراد والإفراد، فتوحُّد الشيء: انفراده عن غيره، وتوحيده: جعله منفردا عن غيره، والحكم عليه بذلك، يقول ابن فارس: "الواو والحاء والدال: أصلٌ واحد يدل على الانفراد. من ذلك: الوَحْدَة، وهو واحد قبيلته، إذا لم يكن فيهم مثله"[6].

ولفظ "التوحيد" لفظ شرعي جاء استعماله في عدد من النصوص، ومن ذلك: أن العاص بن وائل نَذَرَ في الجاهلية أن يَنْحَر مائة بَدَنَة، وأن هشام بن العاص نَحَرَ حِصَّتَه خمسين بَدَنَة، وأن عَمْرًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال: «أما أبوك فلو كان أَقَرَّ بالتوحيد، فَصُمْتَ وتصدقتَ عنه،

---

[3] ابن فارس، أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج3، ص97.

[4] الأزهري، محمد بن أحمد، **تهذيب اللغة**، ج10، ص38.

[5] البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، كتاب الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتَخَلِّيهم عن الدنيا، رقم 6452، ج8، ص96.

[6] ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج6، ص90.

نفعه ذلك»[7].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُعَذَّب ناسٌ من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا فيها حُمَمًا، ثم تدركهم الرحمة، فيخرجون ويُطْرَحُون على أبواب الجنة»[8].

وإذا ثبت أن لفظ التوحيد شرعي، ومعناه حقيقة شرعية، فإن مقتضى ذلك أن الشريعة قد بَيَّنَتْهُ غاية البيان، وأوضحته غاية الوضوح، فيجب الاعتماد على النصوص الشرعية في معرفة حقيقته والرجوع إليها في تحديد ضوابطه ومعالمه وأدلته وأحكامه.

وثبت من خلال الاستقراء أن لفظ التوحيد إذا أُطلق في النصوص الشرعية، فإنه يُراد به من حيث الأصل: توحيد الألوهية، فإذا جاء فيها بأنه أَقَرَّ بالتوحيد أو أَهَلَّ بالتوحيد أو دخل في التوحيد، فالمقصود بذلك كله: توحيد العبادة، فذلك هو الأصل في إطلاق لفظ التوحيد في النصوص الشرعية.

وقد كان هذا المعنى شائعا مستقرا عند علماء السلف، يقول الشافعي: "سُئِل مالك عن الكلام والتوحيد، فقال: مُحال أن نظن بالنبي صلى الله عليه وسلم أنه علم أمته الاستنجاء، ولم يعلمهم التوحيد، والتوحيد ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»، فما عُصم به الدم والمال: حقيقة التوحيد"[9]، ويقول ابن سريج الشافعي: "توحيد أهل العلم وجماعة المسلمين: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وتوحيد أهل الباطل من المسلمين: الخوض في الأعراض والأجسام"[10]، ويقول الدارمي: "تفسير التوحيد عند الأمة وصوابه: قول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، ثم ذكر عددا من الأحاديث وقال مُعَلِّقًا: فهذا تأويل التوحيد وصوابه عند الأمة"[11].

---

[7] الإمام أحمد، أحمد بن محمد، **المسند**، مسند المكثرين من الصحابة: مسند عمرو بن العاص، رقم6704، ج2، ص182، وصححه الألباني وأحمد شاكر.

[8] الترمذي، محمد بن عيسى، **سنن الترمذي**، أبواب صفة جهنم، رقم2597، ج4، ص294، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

[9] الذهبي، محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، ج10، ص26.

[10] قِوَام السُّنة الأصفهاني، إسماعيل بن محمد، **الحجة في بيان المحجة**، ج1، ص107.

[11] الدارمي، عثمان بن سعيد، **الرد على بشر المريسي**، ج1، ص152.

وقد ذكر العلماء تعاريف عديدة لحقيقة التوحيد في الشريعة[12]، **ومن أجمع الحدود –في تعريف التوحيد– أن يقال: هو إفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ونفيها عما سواه**[13].

فهذا الحد جمع بين ذكر خاصية التوحيد وشمول متعلقاته.

قوله: "**إفراد**"، وصف عام يدل على حقيقة الفعل الصادر من العبد، والمراد بالإفراد هنا معناه الشرعي الذي يتضمن معنى التعبد.

قوله: "**الله تعالى**"، يخرج كل ما عداه سبحانه، من المخلوقات.

قوله: "**بما يختص به**"، وصف مميز، يبين أن الإفراد والتوحيد متعلق بالخصائص في كمالها وأصلها.

قوله: "**من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات**"، وصف مميز يحدد متعلقات التوحيد الشرعية، ويبرزها.

قوله: "**ونفيها عما سواه**"، قيد يحقق ركنا من أركان التوحيد، وهو النفي، ومنتهاه: تحقيق انفراد الله بما يتحقق به التوحيد.

وإنما ذُكر هذا القيد مع أنه مُتَضَمَّن في القيد الأول من باب التأكيد على حقيقة التوحيد، والكشف عن ارتكازها على معنى التوحد والانفراد لله سبحانه، ونفي الشريك بالتصريح أولى من نفيه بالتضمن، وخاصة في مثل الحقائق الكبرى في الدين.

وتأكيد النفي في حقيقة التوحيد جارٍ على طريقة الشريعة، ومن ذلك ما جاء في حديث عبادة بن

---

[12] ينظر: السفاريني، محمد بن أحمد، **لوامع الأنوار البهية**، ج1، ص261، والسعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **القول السديد شرح كتاب التوحيد**، ص39.

[13] ينظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، ج3، ص74، والعثيمين، محمد بن صالح، **القول المفيد**، ج1، ص11.

الصامت رضي الله عنه: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له...»[14].

وأما معنى الألوهية، فإنه مأخوذ من معنى العبادة والتأله، يقول ابن فارس: "أَلَه: أَلَه إلاهة كعبد عبادة، والمُتَأَلِّه: المُتَعَبِّد، وبذلك سُمِّي الإله، وكان ابن عباس يقرأ: {ويذرك وإلاهتك} [الأعراف:127]، أي: عبادتك، وكان يقول: إن فرعون كان يُعبد ولا يَعبد"[15]، ويقول ابن جني: "أما (إلاهتك)، فإنه عبادتك، ومنه الإله؛ أي: مستحق العبادة، وقد سُمِّيَتْ الشمس: إلاهة وألاهة؛ لأنهم كانوا يعبدونها"[16].

وبناءً عليه فمعنى توحيد الألوهية: **هو إفراد الله تعالى بالعبادة، ونفيها عن كل ما سواه.**

ثالثا: مفهوم الشرك:

يُطلق لفظ الشرك في اللغة على معانٍ متعددة، ومن أشهرها وأكثرها استعمالا: معنى المشاركة والمخالطة، سواء كان فيها مساواة بين المشاركين أم لا، يقول ابن فارس: "الشين والراء والكاف: أصلان، أحدهما: يدل على مقارنة وخلاف انفراد، والآخر: يدل على امتداد واستقامة، فالأول: الشركة، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما. ويقال: شاركت فلانا في الشيء، إذا صرت شريكه. وأشركت فلانا، إذا جعلته شريكا لك. قال الله جل ثناؤه في قصة موسى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:32]"[17].

وأما حقيقة الشرك في الشرع فقد عُرف بتعريفات عديدة[18]، **والأقرب أن يقال في تعريف الشرك: هو جَعْل شيء من خصائص الله لغير الله تعالى، أو إشراك غيره في شيء من متعلقات خصائصه وأحكامها.**

فهذا الحد يتصف بالجمع والمنع، ويحصل حقيقة الشرك بمعناها الشرعي الواسع.

---

[14] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب أحاديث الأنبياء: باب قوله: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، رقم3435، ج4، ص165، ومسلم، مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان: باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنة وحرم على النار، رقم28، ج1، ص57.

[15] ابن فارس، **مجمل اللغة**، ص101.

[16] ابن جني، عثمان بن جني، **المحتسب**، ج1، ص255.

[17] ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج3، ص265.

[18] ينظر: السمعاني، منصور بن محمد، **تفسير القرآن العظيم**، ج2، ص121، وسليمان بن عبد الله، **تيسير العزيز الحميد**، ج1، ص88، والشوكاني، محمد بن علي، **الدر النضيد**، ص34.

قوله: "**جعل شيء**"، وصف عام، يشمل كل فعل يقوم به العبد، سواء كان قلبيا أو عمليا، ويدل على أن الشرك فعل للعبد ووصف له، وليس بالضرورة فعلا صادقا في الواقع.

قوله: "**شيء**"، وصف يدل على أن الشرك في الشريعة متعلق بمطلق الجعل وليس بالمساواة، فكل من جعل شيئا من خصائص الله تعالى لأحد من الخلق فقد وقع في الشرك، سواء جعله على جهة التساوي أو التفاضل، فمن اعتقد مثلا أن مخلوقا يحيي الموتى بنفسه ولكنه أقل إحياء من الله فهو واقع في الشرك، ومن جعل مخلوقا مستحقا للعبادة ولكنه أقل استحقاقا من الله فهو واقع في الشرك.

قوله: "**من خصائص الله**"، قيد مميز، والمراد بخصائص الله: الأمور والمعاني التي لا تثبت إلا لله تعالى ولا يمكن أن تثبت لغيره من المخلوقين، وما يختص لله وحده نوعان: الأول: ما يختص في أصله وكماله، كالألوهية والجبروت وغيرهما، والثاني: ما يختص الله بكماله، كصفة العلم والإرادة والقدرة وغيرها، فهذه الأمور يتصف بها الخالق والمخلوق، ولكن اتصاف الخالق بها أكمل.

قوله: "**لغير الله**"، وصف عام يشمل المخلوقات كلها، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر أو غيرها.

والتأكيد على أن الشرك متعلق بالخصائص الإلهية ونسبتها للمخلوقين تكرر التنبيه عليه في كلام عدد من العلماء، يقول ابن تيمية: "أصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده"[19]، ويقول ابن القيم: "فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية"[20].

قوله: "**أو**"، هذا الحرف للتقسيم وليس للتردد، فهو إشارة إلى معنى آخر مما يُطلق عليه الشرك في الشريعة.

قوله: "**إشراك غيره في شيء من متعلقات خصائصه وأحكامها**"، أي: إن المكلف لا يُشرك المخلوق في الخاصية ذاتها، وإنما في شيء من متعلقاتها وحقوقها وأحكامها، كمن يراعي مدح المخلوق وإعجابه في عبادته، فهو لم يتوجه للمخلوق بشيء من خصائص الله، الذي هو قصده بالعبادة

---

[19] ابن تيمية، **الاستقامة**، ج1، ص344.

[20] ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **الجواب الكافي**، ص141.

والتذلل، وإنما راعاه في شيء من حقوقها وأحكامها، وهو الحرص على المدح والثناء، وكمن يقول: لولا الله وفلان لحصل كذا وكذا، فهو لم يتعلق بغير الله من حيث الأصل، وإنما جعل لغير الله شيئا من متعلقات خصائصه وأحكامها، هو الالتفات إلى السبب مع الغفلة عن إخلاص التعلق بالله في التدبير؛ أو لأنه متعلق بالتعبير اللفظي عن الخاصية وليس متمحضا في الدلالة على الاشتراك في الخاصية نفسها.

ولهذا كانت هذه الأمور من الشرك الأصغر، لأنه ليس فيها جعل شيء من خصائص الله لغير الله، وإنما غاية ما فيها جعل شيء من أحكام خصائصه ومتعلقاته لغيره سبحانه.

تَنَوُّع المسالك الشرعية على حُسْن التوحيد وقُبْح الشرك بالله تعالى:

لا بد من التأكيد ابتداءً على أن توحيد الألوهية من الأمور الفطرية التي فُطِرَ الناس عليها، كما هو الحال في توحيد الربوبية، ومقتضى ذلك: أن إيمان الناس بمحبة الله والخضوع له والتذلل له لا يحتاج إلى دليل من حيث الأصل، وإنما يُحتاج إليه عند ضعف الفطرة أو انحرافها، وفي بيان هذا المعنى يقول ابن تيمية: "الله سبحانه فَطَرَ عباده على شيئين: إقرار قلوبهم به علما، وعلى محبته والخضوع له عملا وعبادة واستعانة، فهم مَفْطُورُون على العلم به والعمل له، وهو الإسلام الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة»"[21]، ثم ساق الأدلة التي جاءت في إثبات الفطرة.

وأما مسالك الاستدلال على توحيد العبادة، فقد سلكتْ النصوص الشرعية في تأسيس التوحيد في الألوهية وإبطال الشرك مسالك متعددة، ترجع أصولها إلى أربعة مسالك أساسية، هي:

المسلك الأول: إقامة الأدلة الدالة على أن الله وحده هو المستحق للعبادة.

المسلك الثاني: إقامة الأدلة الدالة على أن من دون الله لا يستحق العبادة.

المسلك الثالث: بيان حُسْن التوحيد.

المسلك الرابع: بيان قُبْح الشرك، والكشف عن آثاره الضارة في حياة الإنسان.

ومعرفة هذه المسالك والعيش معها والتعمق في تَفَهُّمِها ودراستها مهم جدا، ويحتاج إليه كل الناس، فالمسلم يحتاج إليها حتى يقوي توحيده لله تعالى وتعلقه به، ويحتاج إليها حتى يقوي حُجَّتَه في دعوة

---

[21] ابن تيمية، **بيان تلبيس الجهمية**، ج4، ص585.

من انحرف بعبادة غير الله تعالى، ويحتاج إليها المشرك حتى يعرف حقيقة ما هو عليه من الانحراف ويدرك حجم الخلل الذي وقع فيه والظلم الكبير الذي حل به، فالناس كلهم في حاجة إلى هذه المسالك معرفة وفهما وتدارسا وتربية.

ومن أشد صور الخلل عند كثير من المشتغلين بالعلم والدعوة: التَّوَهُّم بأن هذه الأدلة لا يُحتاج إليها إلا في النظر إلى حال المشركين لبيان ما لديهم من خلل، والحقيقة أن هذه الأدلة من أقوى ما يؤدي إلى تكميل توحيد الله وتعميقه في النفوس، فنحن في حاجة إلى التعمق في دراستها ونشر مضامينها بين المسلمين في الخطب والدروس والكلمات، فهي من أقوى ما يُعَزِّز يقين التوحيد في النفوس، ومن أشد ما يزيد من كمال التوحيد.

وسنعقد لكل مسلك من تلك المسالك مبحثا خاصا، فيكون عدد المباحث أربعة، وتفصيلها فيما يلي:

المبحث الأول

إقامة الأدلة الدالة على أن الله وحده هو المستحق للعبادة

سلكتْ النصوص الشرعية في إثبات أن الله تعالى هو المستحق للعبادة، وإقناع الناس بالخضوع له بالعبودية والتأله طرقا متعددة، ترجع أصولها إلى ثلاثة طرق أساسية:

الطريق الأول: إثبات أنه سبحانه هو الخالق لهذا الكون والمدبر له:

ومعنى هذا الطريق: أن الله تعالى بيّن للناس بأنه سبحانه هو الخالق لهذا الكون العظيم وأنه خالق الناس، والمدبر لكل ما في هذا الكون من أحداث، والمتصرف في كل شؤونه وأحواله، فلا يقع شيء فيه إلا بإذنه ولا يحدث شيء فيه إلا بتصرفه وتدبيره، فقد خلق الكون فملك كل ما فيه ودَبَّر كل ذرّاته سبحانه، وأن من يتصف بهذه الأوصاف يجب أن يُفرد بالعبادة وحده دون من سواه.

وكثيرا ما ينبه الله تعالى الناس إلى هذه الحقيقة، ويرشدهم إلى دلالتها على أنه هو المستحق للعبادة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:21، 22].

فالله تعالى في هذه الآية وجّه الخطاب للناس جميعا بالدعوة إلى عبادته وحده دون من سواه، ثم بيّن شيئا من الأسس التي توجب عليهم الاستجابة لتلك الدعوة، وهو أنه سبحانه خلق السماوات والأرض ودبّر ما فيهما[22].

ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس:31-32].

فالله تعالى بيّن في هذه الآية بالسؤال الإنكاري الذي وَجَّهَهُ إلى المشركين أنه سبحانه هو المستحق

---

[22] ينظر: الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج1، ص384-386؛ وابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز**، ج1، ص104-105؛ والطاهر ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، **التحرير والتنوير**، ج1، ص323-327.

لأن يُفرد بالعبادة؛ لأنه الرازق المدبر لهذا الكون[23].

ويقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:97-102].

فقد افتتح الله تعالى هذه الآيات بذكر عدد من المشاهد الدالة على بديع تدبيره لهذا الكون وتصريفه لأحداثه، ثم أعقبها بالتنبيه على أنها دالة على توحيده واستحقاقه لأن يُفرد وحده سبحانه بالعبادة دون غيره من المخلوقات[24].

ويقول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل:59-

---

[23] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج12، ص175-176؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج3، ص117-118؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج11، ص155-159.

[24] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج9، ص431-458؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج2، ص326-329؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج7، ص392-412.

64].

الطريق الثاني: إثبات أنه سبحانه هو المتصف بالكمال المطلق:

ومعنى هذا الطريق: أن الله سبحانه يُبَيِّنُ للناس كماله في أسمائه وصفاته، وأنه سبحانه المتصف بصفات الجلال والكمال والرفعة، وأنه مُنَزَّه عن نُعُوت النقص والعجز، وكثيرا ما يمدح الله نفسه بما له من الكمال المطلق، وأنّ من كان متصفا بذلك كله يجب أن يكون معبودا دون من سواه، ويجب على القلوب السليمة التوجه إليه بالحب والتذلل والتعظيم.

وفي الاستدلال بالكمال المطلق يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر:22-24].

فالله تعالى في هذه الآيات يخبر بأنه هو المعبود سبحانه، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو، ثم بيّن شيئا من براهين ذلك فذكر جملة أسمائه الحسنى المتضمنة لعدد من صفاته العليا وكمالاته الجميلة[25].

ويقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:65]، ويقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:180].

فالله تعالى يأمر عباده بأن يعبدوه بأسمائه الحسنى المتضمنة لمعاني صفاته العليا، وذلك بأن يدركوا كماله بها، فيعلموا أنه سبحانه هو المستحق للعبادة، ويستشعروا معاني صفاته ويثنوا بها عليه ويأخذوا بحظهم من العبادات المتعلقة بها، ويسألوه بمعانيها الكريمة[26].

وقد أحسن ابن القيم غاية الإحسان في تَأَمُّلِه لمسلك القرآن في وصف الله تعالى والثناء على

---

[25] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج22، ص550-556؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج5، ص291-292؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج28، ص117-127.

[26] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج10، ص595-598؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج2، ص480-481؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج9، ص185-190.

نفسه، وكيف أن ذلك يؤدي إلى تعلق القلوب به سبحانه والتذلل له بالعبادة دون من سواه، حيث يقول: "تأمل خطاب القرآن: تجد ملِكا له المُلْك كله، وله الحمد كله، أزِمّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومَرَدُّها إليه، مستويا على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالما بما في نفوس عبيده، مطلعا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من عنده، دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف تجده يُثْنِي على نفسه، ويُمَجِّد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نِقَمِه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إِنْ أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إِنْ عصوه، ويخبرهم بصُنْعِه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، ويُنَوّع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شُبَه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها.

ويذكّر عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته.

ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مُقِيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم، والمحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق، ونصيرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

فإذا شهدت القلوب من القرآن ملِكا عظيما رحيما جوادا جميلا هذا شأنه؛ فكيف لا تحبه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه

آثر عندها من رضا كل ما سواه، وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقُوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟"[27].

ويذكر ابن القيم مسالك القرآن في الاستدلال بكمال الله تعالى في أسمائه وصفاته على وجوب توحيده، فيقول عن صفات الله: "تعرّف بها إلى عباده ليعرفوا كماله وعظمته، ومجده وجلاله، وكثيرا ما يذكرها عند ذكر آلهتهم التي عبدوها من دونه وجعلوها شركاء له، فيذكر سبحانه من صفات كماله وعلوه على عرشه وتكلمه وتكليمه وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته ما هو منتفٍ عن آلهتهم، فيكون ذلك من أدل الدليل على بطلان إلهيتها وفساد عبادتها من دونه.

ويذكر ذلك عند دعوته عباده إلى ذكره وشكره وعبادته، فيذكر لهم من أوصاف كماله ونعوت جلاله ما يجذب قلوبهم إلى المبادرة إلى دعوته والمسارعة إلى طاعته والتنافس في القرب منه، ويذكر صفاته أيضا عند ترغيبه لهم وترهيبه وتخويفه، ليُعرِّفَ القلوب من تخافه وترجوه، وترغب إليه وترهب منه، ويذكر صفاته أيضا عند أحكامه وأوامره ونواهيه، فقلّ أن تجد آية حكم من أحكام المكلفين إلا وهي مختتمة بصفة من صفاته أو صفتين، وقد يذكر الصفة في أول الآية ووسطها وآخرها، كقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1].

فيذكر صفاته عند سؤال عباده لرسوله عنه، ويذكرها عند سؤالهم له عن أحكامه، حتى إن الصلاة لا تنعقد إلا بذكر أسمائه وصفاته، فذِكْرُ أسمائه وصفاته رُوحُها وسِرُّها، يصحبها من أولها إلى آخرها، وإنما أمر بإقامتها ليُذكر بأسمائه وصفاته"[28].

الطريق الثالث: إثبات أنه سبحانه هو المُتَفَضِّل بالإنعام المطلق:

ومعنى هذا الطريق: أن الله تعالى كثيرا ما يذكر بأنه المُتَفَضِّل بكل النعم التي يتنعم بها الناس في حياتهم، وأنه ما من نعمة يعلمها الناس قليلة أو كثيرة ظاهرة أو باطنة إلا وهي من الله وحده، هو المتفضل بها وهو سبحانه الذي جاد بإعطائها، وكثيرا ما ينبه الله العباد إلى أن إنعامه المطلق عليهم يستوجب عليهم أن يتعلقوا بحبه وعبادته وأن يتوجهوا إليه بالعبادة والانكسار بين يديه، فالإحسان يستعبد القلوب، فكيف بأصل الإحسان، وكيف بالإنعام المطلق؟!

---

[27] ابن القيم، **الفوائد**، ص28.

[28] ابن القيم، **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، ج3، ص910.

وفي ذكر هذا المسلك والتنبيه عليه يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر:61-64].

فالله تعالى يذكّر العباد في هذه الآية بعدد النعم التي تفضل بها عليهم، ثم ينبههم إلى أن ذلك العطاء يستوجب إفراده بالعبادة دون من سواه، ويجعل قلوبهم متعلقة به وبفضله وعطائه[29].

ويقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:20].

فالله عز وجل يأمر عباده أن يتأملوا في النعم التي بين أيديهم، ويدركوا أن الله سخر ما في السماوات من الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وما في الأرض من الشجر والنبات والمياه والحيوانات وغيرها، وأنه عَمَّكم وغَمَرَكم بنعمه الظاهرة والباطنة التي لا تعلمون عددها، ثم نبه على أن بعض الناس مع ذلك كله يكفر بنعم الله ويجادل في الحق الذي جاء من عنده ويجادل في استحقاقه للعبادة، مع أن الضرورة تقتضي ألا يقع منه إنكار لعبودية الله لما أضفى عليه من النعم الغامرة[30].

ولأجل هذا تواردت مقالات عدد من العلماء على أن من موجبات استحقاق الله لتوحيد العبادة كونه سبحانه هو المتفرد بالإنعام المطلق، يقول ابن سيده: "العبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم كالحياة والفهم والسمع والبصر والشكر، والعبادة لا تستحق إلا بالنعمة؛ لأن العبادة تنفرد بأعلى أجناس النعم؛ لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه إلا من كان له أعلى

---

[29] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج20، ص355-357؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج4، ص566-567؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج24، ص183-192.

[30] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج18، ص565-568؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج4، ص352؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج21، ص173-175.

جنس من النعمة إلا الله سبحانه فلذلك لا يستحق العبادة إلا الله"[31].

ويقول أبو هلال العسكري: "العبادة غاية الخضوع، ولا تُستحق إلا بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يُعبد غير الله تعالى"[32]، ويقول الزمخشري عن مفهوم العبادة: "ولذلك لم تُستعمل إلا في الخضوع لله تعالى، لأنه مُولي أعظم النعم، فكان حقيقا بأقصى غاية الخضوع"[33]، ويقول الراغب الأصفهاني مقررا المعنى ذاته: "العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى"[34].

المبحث الثاني

إقامة الأدلة الدالة على أن من دون الله لا يستحق العبادة

سلكتْ النصوص الشرعية في إبطال عبادة غير الله وقُبْح التَّعَلُّق بالأصنام طُرُقًا متعددة، وقد عرضت النصوص تلك المسالك بطرق متنوعة، تارة بالإثبات والنفي المباشر، وتارة بالأسئلة الإنكارية التقريرية، وتارة بضرب الأقيسة والأمثلة العقلية المُلْزِمَة.

وترجع أهم أصول الطرق التي اعتمدت عليها النصوص في إبطال الشرك وعبادة غير الله إلى ستة طرق:

الطريق الأول: التنبيه إلى نقص المعبودات من دون الله وفقدانها الصفات التي تجعلها مستحقة للعبادة، وإثبات النقص جاء في القرآن بطريقين:

الأول: الإجمال، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:41]، وكما في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:14]، وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ

---

[31] ابن سيده، علي بن إسماعيل، **المخصص**، ج4، ص62.

[32] أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، **الفروق**، ص221.

[33] الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف**، ج1، ص13.

[34] الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، ص319.

أَرَجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف:195]، على بعض الأقوال فيها[35]، ونحوها من الآيات.

والثاني: التفصيل، وذلك بنفي عدد من صفات الكمال التي لا بد أن يتصف بها المعبود.

ومن أظهر تلك الأوصاف المنتفية: صفة الخلق، فكل ما عُبِد من دون الله لم يخلق شيئا من السماوات والأرض، فكيف يُعْبَد؟ ونفي الخلق عما دون الله جاء بصيغة النفي المباشر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل:20]، وجاء بصيغة ضرب المثل، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج:73]، وجاء بأسلوب السؤال الإنكاري، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ [الأحقاف:4].

ومن الصفات المنتفية: إمكان النفع والضر، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء:56]، وكما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة:76].

ومن الصفات المنتفية: إمكان الرزق، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل:73]، وغيرها من الآيات.

ومن الصفات المنتفية: إمكان النصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف:197]، وكما في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأحقاف:28].

ومن الصفات المنتفية: سماع الأصوات والكلام والبصر، كما في قوله تعالى عن إبراهيم مخاطبا

---

[35] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج10، ص535؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج2، ص489؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج9، ص222-223.

أباه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم:42]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171].

ومن الصفات المنتفية: المشاركة في ملك شيء من الكون، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:22].

الطريق الثاني: التنبيه إلى أن المعبودات لا تملك النفع والضر لنفسها، فكيف تقدمه لغيرها؟! كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:16]، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:17]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:3].

الطريق الثالث: التنبيه إلى قصورها غير المتناهي عن كمال الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان:11]، وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس:34، 35]، وكما في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:13، 14]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:33]، ومعنى هذه الآية: أن الله تعالى هو الرب لكل

شيء في الكون والمدبر له، فإن كنتم تزعمون أن معه آلهة أخرى تتصف بمثل صفات كماله فسموها، واذكروا صفات كمال فيها، وهذا إبهات لهم؛ لأنهم لا يمكن أن يذكروا لآلهتهم صفات مثل صفات كمال الله تعالى ولا قريبا منها[36].

الطريق الرابع: التنبيه إلى احتياجها وفقرها، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:75].

الطريق الخامس: التنبيه إلى خضوعها لله تعالى وتذللها له سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:57]، وكما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:42]، على أحد الأقوال في الآية[37].

الطريق السادس: التنبيه إلى أن الأصنام التي يعبدها الناس أنقص من العابدين أو مثلهم في الصفات، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف:195]، على بعض الأقوال فيها، فقد قيل: إن المراد بهذه الاستفهامات: الإنكار على المشركين: كيف يعبدون أصناما أنقص منهم في الصفات؟ وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:194].

المبحث الثالث

بيان حُسْن التوحيد

---

[36] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج13، ص545-550؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج3، ص314؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج13، ص148-154.

[37] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج14، ص603؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج3، ص458-460؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج15، ص110-112.

سلكتْ النصوص الشرعية في إثبات حسن التوحيد، وتنبيه الناس إلى آثاره الطيبة في حياتهم طرقا متعددة، من أهمها:

الطريق الأول: تشبيه التوحيد بالشجرة الطيبة ذات الجذور الثابتة والأغصان المرتفعة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم:24، 25].

وفي بيان وجه دلالة هذه الآية يقول ابن عباس: "﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم:24]، شهادة: أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: "لا إله إلا الله"، ثابت في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يُرفع بها عمل المؤمن إلى السماء"[38].

الطريق الثاني: تشبيه التوحيد والإيمان بالعُرْوَة الوُثْقَى، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: 256]، وفي بيان دلالة هذه الآية يقول الطبري: "العروة في هذا المكان مَثَلٌ للإيمان الذي اعتصم به المؤمن، فَشَبَّهَه في تَعَلُّقِه به وتَمَسُّكِه به بالمتمسك بعروة الشيء الذي له عروة يتمسك بها، إذ كان كل ذي عروة فإنما يتعلق من أراده بعروته... ومعنى الكلام: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد اعتصم من طاعة الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانه إياه وإسلامه عند حاجته إليه في أهوال الآخرة، كالمتمسك بالوثيق من عرى الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها"[39].

الطريق الثالث: وصف التوحيد بأنه عهد بين العبد وربه، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم:77-78]، فالله جل وعلا في هذه الآية ينكر على الكافر الذي يدّعي بأن الله سيؤتيه مالا وولدا، فيقول: هل اطلع على الغيب أم هل آمن بالله ووحّده فيكون له عهد عند الله، وقد فسر عدد من أئمة السلف، منهم ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما بأن العهد: هو قول لا إله إلا الله[40].

---

[38] الطبري، **جامع البيان**، ج13، ص634.

[39] الطبري، **جامع البيان**، ج4، ص552-561.

[40] ينظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، **زاد المسير**، ج5، ص261.

الطريق الرابع: تصوير التوحيد بمن يسير على طريق واضح بيّن لا خطر فيه ولا زلل، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:22]، فهذا مثل ضربه الله ليبين به حال المشرك وحال الموحد، فحال المشرك كحال من يسير منحنيا على وجهه، في طريق مظلم غامض لا يدري أين يسلك به ولا كيف يذهب بل هو تائه حائر ضال، وحال المسلم كحال رجل يسير وهو منتصب القامة في طريق واضح بيّن مستقيم لا لبس فيه ولا خوف ولا اضطراب، فهذا التصوير يبين حسن التوحيد وقبح الشرك في آن واحد.

المبحث الرابع

بيان قُبْح الشرك، والكشف عن آثاره الضارة في حياة الإنسان

سلكتْ النصوص الشرعية في إثبات قُبْح التوحيد، وتنبيه الناس إلى آثاره الضارة في حياتهم طرقا متعددة، من أهمها:

الطريق الأول: تشبيه الشرك بالشجرة الخبيثة التي لا نفع فيها ولا خير ولا ثبات لها ولا استقرار، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: 26].

فهذا مثل ضربه الله للشرك والمشرك، وفي بيان دلالته يقول ابن عباس: "ضرب الله مثل الشجرة الخبيثة كمثل الكافر، يقول: إن الشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الكافر لا يقبل عمله، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في الدنيا ولا في الآخرة"[41].

الطريق الثاني: بيان أن الشرك ادعاء مُجَرَّد لا يمكن أن يُقام عليه برهان ألبتة، والقرآن يصف ما أقدم عليه الكفار من الشرك بالله بأنه ليس عليه دليل وليس لديهم حجة ولا برهان، وهذا المعنى تكرر كثيرا في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [الحج:71]، وكقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ

[41] الطبري، **جامع البيان**، ج13، ص655.

سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:151]، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون:117].

وهذه الآيات كلها تصب في معنى واحد، وهو: أن الإشراك بالله تعالى لا يمكن أن تقوم عليه حجة بيّنة، ولا يمكن لأحد أن يقيم دليلا سليما يثبت به صحة الشرك، فكل من أشرك بالله تعالى في عبادته فهو مخالف للعلم الصحيح، ولهذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف:4]، وهذا كله يؤكد على أن كل من أشرك بالله فهو خالٍ من الدليل الصحيح، وعاجز عن إقامته على فعله، وكفى بذلك دلالة على قُبْح الشرك ووجوب النُّفُور منه.

الطريق الثالث: إثبات أن حقيقة الشرك لا يرضى المشرك أن يطبقها على نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم:28].

ويشرح ابن القيم دلالة هذا المثل فيقول: "هذا دليل قياس احتج الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، ومن أبلغ الحجاج أن يؤخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها معلوم لها، فقال: هل لكم مما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل، أي: هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهليكم، فأنتم وهم في ذلك سواء تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها ويستأثرون ببعضها عليكم كما يخاف الشريك شريكه"[42].

وهذه الآية تدل على إبطال الشرك في توحيد العبادة بقياس الأولى، ولهذا يقول ابن كثير معلقا عليها: "ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى، قال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم:28]"[43].

ومما يدخل في هذا الطريق قوله صلى الله عليه وسلم: «إن مثل مَن أشرك بالله كمثل رجل اشترى

---

[42] ابن القيم، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ج1، ص210.

[43] ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، ج6، ص312.

عبدا من خالص ماله بذهب أو وَرِق، فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأَدِّ إلي، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟!»[44].

الطريق الرابع: إثبات أن الشرك يؤدي إلى حالة فظيعة من الاضطراب والتشتت، نتيجة لتعدد من يتعلق بهم المشرك، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:29]، فهذا المثل: "ضربه الله سبحانه للمشرك والموحد، فالمشرك بمنزلة عبد تملكه جماعة مشتركون في خدمته لا يمكنه رضاهم أجمعين، والموحّد لما كان يعبد الله وحده، فمثله كمثل عبد رجل واحد، قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير منازع فيه مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليته بمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟!"[45].

الطريق الخامس: إثبات أن الشرك يؤدي بالمشرك إلى فقدان القواعد والأسس التي يعتمد عليها، وإلى فقدان من يحميه، ويصبح كمن فقد التوازن والاستقرار في مسيره، وبات حاله مكشوفا لكل من أراد المساس به، كما في قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:31]، فهذا المثل يبين حال المشرك في أقبح صورة، إذ يظهره كمن فقد الأساس والاستقرار والمستند الصحيح، فهو كمن خَرَّ من السماء فتلقفته الطير في الهواء فمزقته في حواصلها إِرْبًا إِرْبًا، أو كمن عصفت به الريح فذهبت به في مكان بعيد سحيق لا يعلم به أحد[46].

يقول السعدي: "من ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبليات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه،

---

[44] الترمذي، **سنن الترمذي**، أبواب الأمثال: باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، رقم2863، ج4، ص445؛ وابن خزيمة، محمد بن إسحاق، **صحيح ابن خزيمة**، كتاب الصلاة، باب النهي عن الالتفات في الصلاة، رقم930، ج2، ص64؛ والحاكم، محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب الصوم، رقم1534، ج1، ص582.

[45] ابن القيم، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ج1، ص242.

[46] ينظر: **المصدر نفسه**، ج1، ص234.

وأذهبوا عليه دينه ودنياه"[47].

الطريق السادس: التنبيه على أن الشرك فيه إساءة إلى المحسن، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا المعنى كرر الله تعالى التنبيه عليه كثيرا في القرآن، يقول تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النحل:54، 55]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام:63، 64]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر:8].

فهذه الآيات تدل على معنى واحد، وهو: أن الله تعالى هو صاحب الإنعام المطلق، وهو وحده الذي يجب أن يُفرد بالعبادة، ومع ذلك فالمشرك مع إدراكه بأن كل النعم التي هو فيها من عند الله تراه يشرك مع الله غيره ولا يفرده بالخضوع، ويجعل معه أندادا، ويتوجه إلى غيره.

الطريق السابع: التنبيه على أن المشرك مهما كان يقينه فيمن أشرك به، فإنه لا محالة سيضطرب ويفقد يقينه بشركه عند نزول المصائب به، ويرجع إلى فطرته ومقتضيات العقل السليم، وهذا دليل ظاهر في أن الشرك ليس مسلكا صحيحا، وهذا المعنى كرر الله تعالى تنبيه المشركين عليه كثيرا، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس:22، 23]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:67].

الطريق الثامن: التنبيه على أن الشرك يستلزم سوء الظن بالله تعالى، فإن المشرك لا يُقْدِم على اتخاذ الوسطاء إلى الله إلا وهو قد أساء الظن برحمة الله وكرمه، وتوهم أن عطاء الله لا يكون إلا بِتَوَسُّط أحد من الخلق، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ

[47] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ص538.

﴿٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ [الصافات:86، 87]، أي: فما الظن القبيح الذي ظننتموه بربكم حتى أقدمتم على عبادة غيره، فتوهمتم أن غيره يستحق العبادة أو أنه لا يعاقبكم على الجُرم الكبير الذي وقعتم فيه، يقول السعدي: "فما ظنكم برب العالمين، أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم، وما الذي ظننتم برب العالمين من النقص حتى جعلتم له أندادا وشركاء"[48].

ويقول المقريزي: "فما ظنّكم أن يجازيكم إذا عبدتم معه غيره، وظننتم أنه يحتاج في الاطلاع على ضرورات عباده، لمن يكون بابا للحوائج إليه، ونحو ذلك، وهذا بخلاف الملوك، فإنهم محتاجون إلى الوسائط ضرورةً لحاجتهم وعجزهم وضعفهم، وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين، فأما من لا يشغله سمع عن سمع، وسبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرّحمة، فما تصنع الوسائط عنده؟ فمن اتخذ واسطةً بينه وبين الله تعالى فقد ظنّ به أقبح الظن، ومستحيل أن يشرعه لعباده، بل ذلك يمتنع في العقول والفِطَر"[49].

الطريق التاسع: التنبيه على أن الشرك منافٍ لعظمة الخالق وتعظيمه، فمن أشرك غير الله معه في شيء من المعاني الخالصة له، كغاية الحب والتذلل والتوكل وغيرها فهو في الحقيقة ينتهك تعظيم الله، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر:66، 67].

فالله تعالى يخبر أن المشركين لم يعظموا الله تعالى حق التعظيم، مع أن الشواهد الموجبة لذلك ظاهرة بينة، فهو الخالق لكل شيء المتصرف في تدبير كل ما في الوجود، ثم بين لهم بأنه يتنزه عن كل ما وقعوا فيه من الشرك تنبيها لهم على حقيقة حالهم[50].

الطريق العاشر: التنبيه على أن الشرك وَضْعٌ للشيء في غير موضعه، فهو أعظم أنواع الظلم،

---

[48] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ص705.

[49] تقي الدين المقريزي، أحمد بن علي، **تجريد التوحيد المفيد**، ص32.

[50] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج20، ص244-253؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج4، ص540-541؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج24، ص59-64.

والنفوسُ السَّوِيَّة تَنْفِر من الظلم أشد النفران، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13].

فالله تعالى في هذه الآية يكشف عن أن المشرك وقع في أعظم صور الظلم ووضع الأمور في غير موضعها، وذلك حين جعل المخلوقات شريكة مع الله في الخضوع والتذلل والتعبد[51].

الطريق الحادي عشر: التنبيه على أن الشرك يعد خروجا عن نظام العالم كله، وذلك أن كل من في السماوات والأرض خاضع لله تعالى مستسلم له وحده، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران:83].

فالله تعالى ينكر على المشركين، ويقول: ماذا يريد هؤلاء؟! هل يريدون غير توحيد الله والخضوع له، والكون كله خاضع له سبحانه والخلق كلهم منقادون مستسلمون له إما طوعا واختيارا، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، وإما كَرْهًا وهم سائر الخلق، حتى الكفار مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، فالمشرك في الحقيقة خارج عن مسار الخلائق كلها، ومعارض لمسيرة الكون.

فهذه المسالك وغيرها تدل بجلاء على أن عبادة الله تعالى حسنة في نفسها، وحسنها ثابت بالعقل والفطرة، وأن الشرك بالله في عبادته قبيح في نفسه، وقبحه ثابت بالعقل والفطرة، فتلك الدلالة تقوم في حقيقتها على معانٍ عقلية بيّنة ومضامين فطرية جليّة.

الطريق الثاني عشر: بيان خيبة أمل المشرك فيما أشرك به وضخامة توهمه فيه، كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 41]، فهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه

---

[51] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج18، ص549؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج4، ص348؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج21، ص153-156.

شيئا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء[52].

الطريق الثالث عشر: تشبيه المشرك برجل ضل الطريق وسمع أصوات أصحاب يعرفهم يدعونه إلى الطريق، وسمع صوت رجل لا يعرفه يدله على طريق آخر، فاتبع صوت من لا يعرفه، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:71].

يقول ابن كثير: "هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى الله عز وجل، كمثل رجل ضل عن طريق تائها ضالا؛ إذ ناداه مناد: يا فلان بن فلان، هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه: يا فلان، هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول، انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق"[53].

الطريق الرابع عشر: الإشارة إلى أن الشرك فيه قلب للحقائق وتغيير للقوانين، فإن من المعروف عند كل العقلاء أن العبد الفقير إنما يشكر من خلقه ودبر أمره وأعطاه كل شيء، ولا يعين من كان عدوا له وساعيا فيما يخالف أمره، وفعل ما يبغضه، ولكن المشرك قلب الحقائق، فاتبع الشيطان وأعانه على مخالفة أمر الله تعالى.

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان: 55]، فإن القول المشهور فيها أن الكافر أعان الشيطان على معصية الله ومخالفة أمره، مع أن الله هو الذي خلقه ورزقه وأعطاه[54].

وثَمَّ قول آخر في معنى الآية ذكره الطوفي، حاصله أن المراد بالرب هنا الصنم، فيكون معنى الآية، وكان الكافر هو الذي يناصر صنمه الذي يعبده ويدافع عنه ويقوم على شؤونه، وهذا المعنى إن صح

---

[52] ينظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج6، ص279.

[53] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج3، ص279.

[54] ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج17، ص476-479؛ وابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج4، ص215؛ والطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج19، ص56-57.

يتضمن قلب الحقائق أيضا، فمن المعروف عند العقلاء كلهم أن المعبود يكون مستغنيا عن عابده، وأنه هو الذي يصرف حال العابد ويدبر أمره، ويكون عليه حاكما ومهيمنا ومتصرفا ومناصرا ومدافعا عنه، ولكن المشرك قلب الحقائق فاتخذ أصناما هو الذي يصنعها وهو الذي يدبر أمرها وهو الذي يدافع عنها وهو الذي يقوم بشؤونها.

يقول الطوفي في بيان هذا المعنى: "شأن الإله أن يكون ظهيرا، أي: حاكما مستظهرا على عبيده، وهؤلاء بالعكس؛ لأنهم ظهراء على أربابهم، إذ أحدهم يَسُوسُ ربه ويطعمه ويخدمه، وربما عمل ربا من حيس أو تمر، ثم إذا جاع أكله، والإلهية تقتضي خلاف ذلك"[55].

الخاتمة

بعد هذه الجولة المُوَسَّعَة في مسالك النصوص الشرعية في الدلالة على المناطات الموجبة للكفر الأكبر، يمكن أن نخرج بعدد من النتائج والتوصيات، وذلك فيما يلي:

الأمر الأول: أن النصوص الشرعية لم تعتمد على مسلك واحد في بيان حُسْن التوحيد وقُبْح الشرك، وإنما اعتمدتْ على مسالك متعددة، منها ما هو عقلي، ومنها ما هو نفسي، ومنها ما هو حياتي.

الأمر الثاني: أن النصوص الشرعية لم تقتصر على بيان حُسْن التوحيد فقط، وإنما جمعت مع ذلك بيان قُبْح الشرك، فجمعت بين البناء والهدم، وهذا الأمر أبلغ في تحقيق المقاصد الشرعية.

الأمر الثالث: ضرورة الحرص على تنوع الأدلة ومسالك البراهين في الاقتناع بالإسلام وأصوله، فإن هذا التنوع هو أحد المسالك التي اعتمدتْ عليها الشريعة.

الأمر الرابع: ضرورة الاهتمام بالمسالك الشرعية التي اعتمدت عليها الشريعة في أصول الدين الأخرى، كالإيمان بالنبوة والوحي والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، وجمع أهم المسالك الشرعية في بنائها.

---

[55] الطوفي، سليمان بن عبد القوي، **علم الجذل في علم الجدل**، ص173.

المصادر والمراجع

1- الأزهري، محمد بن أحمد، **تهذيب اللغة**، تح: محمد عوض مرعب، (دار إحياء التراث العربي، ط1، 2001م).

2- الأصفهاني، إسماعيل بن محمد، **الحجة في بيان المحجة**، تح: محمد المدخلي وآخر، (دار الراية، ط2، 1419هـ).

3- البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع المسند الصحيح المختصر من من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ).

4- الترمذي، محمد بن عيسى، **سنن الترمذي**، تح: بشار عواد، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، د.ط، 1998م).

5- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **الاستقامة**، تح: محمد رشاد سالم، (دار الهدي النبوي، ط1، 1420هـ).

6- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **بيان تلبيس الجهمية**، تح: يحيى الهنيدي وآخرين، (السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ط1، 1426هـ).

7- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، (السعودية: جامعة الإمام محمد ابن سعود، د.ط، 1418هـ).

8- ابن جني، عثمان بن جني، **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، (وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، د.ط، 1420هـ=1999م).

9- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، **زاد المسير في علم التفسير**، تح: عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1422هـ).

10- الحاكم، محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، تح: مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ=1990م).

11- ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل، **المسند**، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ=2001م).

12- ابن خزيمة، محمد بن إسحاق، **صحيح ابن خزيمة**، تح: د. محمد مصطفى الأعظمي، (بيروت: المكتب الإسلامي، د.ط، د.ت).

13- الدارمي، عثمان بن سعيد، **الرد على بشر المريسي**، تح: رشيد الألمعي، (مكتبة الرشد، ط1، 1418هـ).

14- الذهبي، محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، تح: جماعة من الباحثين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ).

15- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تح: صفوان عدنان الداودي، (دمشق: دار القلم، الدار الشامية، ط1، 1412هـ).

16- الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ).

17- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **القول السديد شرح كتاب التوحيد**، تح: المرتضى الزين، (مجموعة التحف النفائس الدولية، ط3، د.ت).

18- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ=2000م).

19- السفاريني، محمد بن أحمد، **لوامع الأنوار البهية**، (دمشق: مؤسسة الخافقين، ط2، 1402هـ=1982م).

20- سليمان بن عبد الله، **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، تح: زهير الشاويش، (بيروت، دمشق: المكتب الإسلامي، ط1، 1423هـ=2002م).

21- السمعاني، منصور بن محمد، **تفسير القرآن**، تح: ياسر بن إبراهيم وآخر، (السعودية: دار الوطن، ط1، 1418هـ=1997م).

22- ابن سيده، علي بن إسماعيل، **المخصص**، تح: خليل إبراهيم جمال، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1417هـ=1996م).

23- الشوكاني، محمد بن علي، **الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد**، علق عليه: أبو عبد

الله الحلبي، (دار ابن خزيمة، ط1، 1414هـ).

24- الطاهر ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط، 1984م).

25- الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تح: د. عبد الله التركي، (السعودية: دار هجر، ط1، 1422هـ).

26- الطوفي، سليمان بن عبد القوي، **علم الجذل في علم الجدل**، تح: فولفهارت هاينريشس، (سلسلة النشرات الإسلامية، ط1، 1408هـ=1987م).

27- ابن عثيمين، محمد بن صالح، **القول المفيد شرح كتاب التوحيد**، (السعودية: دار ابن الجوزي، ط2، 1424هـ).

28- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ).

29- ابن فارس، أحمد بن فارس، **مجمل اللغة**، تح: زهير عبد المحسن سلطان، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1406هـ=1986م).

30- ابن فارس، أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تح: عبد السلام هارون، (دار الفكر، د.ط، 1399هـ).

31- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تح: محمد عبد السلام إبراهيم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ).

32- ابن قيم، محمد بن أبي بكر، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، تح: محمد أجمل الإصلاحي وآخر، (السعودية: مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ط1، 1429هـ).

33- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**، تح: علي بن محمد الدخيل، (السعودية: دار العاصمة، ط1، 1408هـ).

34- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **الفوائد**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1393هـ=1973م).

35- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تح: سامي السلامة، (دار طيبة، ط2، 1420هـ).

36- مسلم، مسلم بن الحجاج، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت).

37- تقي الدين المقريزي، أحمد بن علي، **تجريد التوحيد المفيد**، تح: طه محمد الزيني، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، د.ط، 1409هـ=1989م).

38- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، **الفروق**، تح: محمد إبراهيم سليم، (القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر، د.ط، د.ت).